إعداد وترجمة: وئام بلعوم

بن غوريون وهوس أصل الفلسطينيين

ننقل إلى القراء في أرشيف هذا العدد ترجمة لمقتطفات من مقالة[1] لدافيد بن غوريون، قائد العصابات الصهيونية أثناء نكبة الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨، ورئيس الحكومة الإسرائيلي الأول، بعنوان «لفحص أصل الفلاحين». وقد نشرت هذه المقالة في نيويورك في العام ١٩١٧، وهي تُعبّر عن هوس بن غوريون والحركة الصهيونية بأصل الفلسطينيين ومحاولته نفي أصلانيتهم وانتمائهم لأرض فلسطين وللعروبة، مستخدماً مفردات ودلالات عنصرية ومُحتقِرة لأصحاب البلاد.

يبدأ بن غوريون مقالته معدداً خصال الفلسطينيين وأماكن تواجدهم:

«ينقسم سكان فلسطين إلى ثلاثة أنواع مختلفين في أسلوب حياتهم، ملابسهم، حديثهم، ومصادر رزقهم. المجموعة الأولى هي متجوّلو الصحراء، «سكان الخيام» الذين يكسبون رزقهم بشكل رئيسي من قطعان الأغنام والجمال – ويسمى هؤلاء بلسان أهل المكان «البدو» (تعود تسمية البدو باللغة العربية إلى البادية) أو «عرب»، بمعنى عرب.[2] تتكون المجموعة الثانية من سكان المدن الذين يعملون في التجارة والحرف، وجزئيا في أعمال الأرض، وخاصة في الزراعة، وتسمى هذه المجموعة «مدنية»، من أصل «المدينة». المجموعة الثالثة هم المزارعون الذين يعملون في القرى، ويسمون «الفلاحين»، من أصل «فلح»، فلاح الأرض. يتجاوز هذا النوع النوعين الآخرين بالكمية والأهمية الاقتصادية. داخل حدود بلادنا، من جبل الشيخ في الشمال إلى خليج العقبة (البحر الأحمر) في الجنوب، ومن البحر الكبير في الغرب

إلى الصحراء السورية في الشرق هنالك حوالي مليون شخص. من بين هؤلاء، يوجد حوالي ١٠٠,٠٠٠ من البدو، حوالي أربعمائة ألف مركّزين في خمس وعشرين مدينة، والباقي أكثر من نصف مليون شخص يعيشون في القرى. يتركز ثلثا هؤلاء، حوالي ٣٨٠ ألف شخص، غربي الأردن، في أرض كنعان القديمة، وحوالي الثلث – حوالي ١٦٠ ألف شخص، على الجانب الشرقي من نهر الأردن.»

ومن ثم ينتقل بن غوريون لتوصيف الفئات الفلسطينية المختلفة، وعند وصوله للفلاحين يحاول جاهداً نفي أصولهم العربية، قائلاً:

«على المساحة الصغيرة الممتدة بين حيفا وقيساريا، على طول حوالي عشرين ميلاً، نجد بين المزارعين ما لا يقل عن ثمانية أعراق مختلفة: السوريون واليهود والشركس والعرب والسلاف (البوسنيين) والتركمان والألمان والزنوج. ونرى أيضاً في حوران، على الجانب الآخر من الأردن، قرى الزنوج، والتركمان، والمسيحيين، والهندوس، والموارنة، والشركس. (..)

يسمي السياح الأوروبيون الذين يزورون البلاد هؤلاء الفلاحين باسم العرب. (..) إذا ما قصدوا بهذا المصطلح للدلالة على الدين واللغة، فإن مصطلح «العرب» يناسب معظم المجتمع القروي. ومع ذلك، إذا جئنا لنبحث في أصولهم ومصدرهم ونفحص أسلوب حياتهم الداخلي وننقب في التقاليد القديمة التي تم الحفاظ عليها حتى يومنا هذا، فيظهر أنه لا يوجد شيء تقريبا بينها وبين العرب الحقيقيين، أبناء العرق العربي.»

وبعد نفي الأصول العربية للفلسطينيين، يقول بن غوريون:

«القبائل العربية التي مكثت في أرض إسرائيل في أيام الخليفة عمر لم تدمر المستوطنة الزراعية التي وجدتها في أرض إسرائيل آنذاك. شيء كهذا لم يكن ليعود بالفائدة عليهم. لم يكن هناك بين العرب الغزاة شريحة من المزارعين. كمثل البدو في زماننا، كان أبناء العرب يعملون بالأساس في المراعي والتجارة والحرب. وعندما انطلقت جيوش النبي من شبه الجزيرة العربية لاحتلال أراضٍ جديدة، لم يكن لها هدف استعماري–صهيوني، أي الاستيطان على الأرض والانخراط في الزراعة. كان طموحهم هو نشر دين الإسلام، وتعزيز حكمه، وفرض الضرائب على الشعوب المستسلمة. وكما نرى في عصرنا، فإن «العربي»، أي البدوي، ينتقل للعمل في الأرض بصعوبة كبيرة وفي حالات نادرة فقط، وذلك على الرغم من كل الجهود التي تبذلها الحكومة، التي تسعى إلى ربط سكان الصحراء المتوحشين بالأرض، وبالتالي فرض سلطتها عليهم. عندما تغلّب جيش الخليفة عمر على حكم البيزنطيين في أرض إسرائيل، استولى المنتصرون على معظم الأراضي المزروعة، لكنهم لم ينهبوا بشكل كامل عمّال الأرض الذين وجدوهم على أرضهم. ولم يذهب أصحاب الأرض الجدد لزراعة أراضيهم، بل تركوا أصحاب الأرض السابقين ليزرعوا أراضيهم، بعد أن فرضوا عليهم الضرائب المعروفة. تم استبدال أصحاب الأرض فقط، ولكن ليس العمال. الرابحون العرب الذين استقروا في أرض إسرائيل استوطنوا في المدن. سكان القرى، الذين تحولوا لعمال دافعي ضرائب، كانوا أبناء البلاد، والذين سبقوا الاحتلال العربي، والذين قبلوا لغة المنتصرين ودينهم فيما بعد.

معظم الفلاحين في عصرنا هم أحفاد نفس الفلاحين الذين وجدهم العرب في البلاد في القرن السابع. من هم هؤلاء الفلاحون؟

بالطبع لم يكونوا يونانيين أو رومانياً. لم يعمل هذان الشعبان في أعمال الأرض في أرض إسرائيل. كانت المستوطنات اليونانية والرومانية الموجودة في أرض إسرائيل مستعمرات حضرية اشتغلت في التجارة البحرية في المدن الساحلية أو في التجارة الداخلية في المدن التي يتردد عليها الباعة المتجولون. سكان البلد، كما أشار جيروم في القرن الرابع، لم يتكلموا اليونانية أو الرومانية لكن الآرامية، لغة الجماهير اليهودية أثناء وبعد الخراب.»

ومن ثم ينتقل بن غوريون إلى نفي الجذور الكنعانية للفلسطينيين بما يناقض ما قاله مؤرخون مشهورون، دون إسناد أي إثباتات علمية. يقوم بن غوريون بمحاولة لإثبات أن أصل الفلاحين يهودي، وهم من اليهود الذين بقوا في فلسطين، وبحسب ما يدعي فقد غيروا ديانتهم خوفاً من الاضطهاد الديني. ومما جاء في النصف الثاني لمقالته من مقولات:

«في لغة وعادات وتقاليد وآداب الفلاحين المعاصرين، نجد العديد من العلامات حول أصلهم اليهودي. تختلف لهجة الفلاحين عن لهجة سكان المدينة وعن

لهجة البدو الرحل. بحسب رأي كونراد، هنالك لكنة آرامية في لهجة الفلاح. يستخدم الفلاحون، الفلاحون فقط، العديد من الكلمات العبرية للدلالة على أماكن البلاد، مثل: مخارج، قلعة، تلة، حصن، شق، قناة. العديد من هذه الأسماء غير موجودة في العربية، لكن الفلاحين يفهمون معناها. (..)

عن صلة الفلاحين بالمستوطنة العبرية القديمة، يلفتنا الشبه المدهش الذي نجده بين الحياة اليومية للفلاحين الحديثين وبين أوصاف الحياة القديمة لليهود القدماء، كما تم الحفاظ عليها في أدبنا القديم، وفي الكتاب المقدس وفي التلمود. يمكن تأليف كتاب كبير عن المقارنات والتشابهات بين حياة الفلاحين في زمننا وحياة اليهود. هنالك بالطبع تأثير للمكان والمناخ، لكن بدون شك (خاصةً عندما ننتبه إلى البراهين التاريخية الأخرى التي ذكرناها أعلاه) هناك تراث حي هنا وإرث القدماء.(..)

ليس كل الفلاحين في عصرنا هم أحفاد المستوطنة الزراعية القديمة، التي كانت يهودية بشكل رئيسي. خلال الاثني عشر عامًا التي تلت الاحتلال العربي، استقبل المجتمع الزراعي في أرض إسرائيل العديد من العناصر الأجنبية. ترحال الشعوب الذي لم يتوقف في أرض إسرائيل منذ ما قبل دخول السماء إلى أرض كنعان وحتى يومنا هذا – أدى أحياناً إلى خلط التركيب العرقي لـ»الييشوف» وأدخلت إلى داخله دماء جديدة.»

ويختتم بن غوريون مقالته:

«لكن على الرغم من تعدد هذه الخلطات فإن معظم أحفاد وأبناء الفلاحين المسلمين في غرب فلسطين يبدون كأبناء عرق واحد وشعبة إثنية واحدة، وليس هناك شك في أنه في عروقهم يجري الكثير من الدم اليهودي – دم هؤلاء الفلاحين اليهود، «شعب الأرض»، الذين اختاروا في الأوقات العصيبة إنكار دينهم كي لا يتم اقتلاعهم من أرضهم.»

كلمة ختامية:

لا يحتاج الفلسطينيون إثباتا لأصلهم ولصلتهم بالبلاد، فهم أهل البلاد وأصحابها، ولا يحتاجون لإثبات ملكيتهم لها أمام المُستعمِر. بالإضافة لذلك، لا نبغي هنا نفي ادعاءات بن غوريون حول أصل الفلسطينيين. فالفلسطيني، من وجهة نظر كاتب هذه السطور، هو فلسطيني بانتمائه إلى المكان وبهويته الثقافية، وهي بدون شك هوية حديثة مثل باقي الهويات الوطنية في العالم. بالتالي، يجدر بنا كفلسطينيين رفض ربط الهوية الفلسطينية بعلاقات دم وأصل وما شابه، كما أنها، أي الهوية الفلسطينية، ليست في تناقض مع الهوية العربية. ولا نجدد إذ نقول إن المنطقة العربية لم يتم تقسيمها بالحدود حتى سايكس–بيكو، وبالتالي فإن حركة الناس فيها كانت طبيعية، فلا يعيب أي فلسطيني أن يكون «أصله» من بلاد الحجاز او أن يكون «أصل» أي مصري من بلاد الشام.

الهوامش

١ لقراءة المقالة الكاملة باللغة العبرية: https://benyehuda.org/ben_gurion/anaxnu02.html

٢ بالعبرية «عرفيم» «ערבים»